تحقيق

منير الشحياف

تلاحم اللبنانيين في المحن يثبت أن لبنان وطن الرسالة النزوح والتهجير عزّزا التموضع الفئوي وزادا الفقر

في وقت تعاني فيه معظم دول العالم، حتى الكبيرة منها، من تدخلات دول اخرى، من البديهي القول ان لبنان، الوطن الصغير في حجمه وقدراته والموجود بين سوريا والعدو الاسرائيلي والى جانب القضية الفلسطينية، عانى من مخططات وتدخلات وتأثيرات دولية كثيرة فرضت في كثير من الاحيان على ابنائه حروبا وتهجيرا ونزوحا

يعتبر لبنان وطن الرسالة لأنه يضم 18 طائفة تتعايش مع بعضها بسلام، على الرغم من بعض الخروقات جراء الاختلافات والمشاكل الطبيعية او التدخلات الخارجية بشكل خاص. الحروب المتنوعة التي حصلت على ارضه منذ عام 1975 حتى اليوم، فرضت نزوحا او تهجيرا كبيرا بين مختلف مدنه ومناطقه بما اعاد رسم خارطة التوزيع الجغرافي الطائفي. لكن في كل محنة، يشكل تلاحم اللبنانيين اعادة تأكيد بأن لبنان كان ولا يزال وسيبقى وطن الرسالة.

ما هي أبرز محطات او مراحل النزوح او التهجير التي حصلت في لبنان منذ عام 1975 وحتى اليوم؟ ما العدد التقريبي، على اعتبار انه لا توجد ارقام رسمية دقيقة، للبنانيين الذين نزحوا او تهجروا في مختلف المراحل وصولا الى هذا الوقت؟ ما مختلف الاثار الاجتماعية التي تركتها تلك الحالات في بنية المجتمع اللبناني؟

بحسب القانون الدولي

النزوح هو انتقال الافراد من منطقة الى منطقة اخرى ضمن حدود الدولة نفسها بسبب النزاعات او الكوارث او غيرها من الاسباب. بينما التهجير القسري هو اجبار الافراد، اي ليس بإرادتهم الحرة

وقرارهم الذاتي، على مغادرة اماكن اقامتهم الى مناطق اخرى داخل او خارج الدولة. ما يجدر التوقف عنده هنا هو ان التهجير القسري المتمثل في اجبار العدو الاسرائيلي سكان الكثير من بلدات الجنوب وقراه وضاحية بيروت الجنوبية والبقاع وسواها على مغادرة بلداتهم وقراهم ومنازلهم فورا، يعد بحسب القوانين الدولية جريمة حرب وانتهاكا خطيرا للقانون الدولي الانساني.

> **التنوع السكاني ينكمش في الحروب ويتمدد في السلام**

الواقع اللبناني

شكل النزوح والتهجير في لبنان منذ عام 1975 وحتى اليوم، ظاهرة شبه متكررة لأسباب معروفة وبأعداد مختلفة. على الرغم من ذلك، لا تتوافر دراسات موسعة او احصاءات دقيقة توثق كل التفاصيل، خاصة خلال سنوات الحرب حيث توقفت الوزارات عن العمل، ولم يكن هناك تسجيل رسمي ودقيق للنازحين والمهجرين. في المقابل، حاولت بعض الدراسات الدولية والاكاديمية جمع المعلومات المتاحة لتقدير اعداد النازحين والمهجرين والمراحل الكبرى للنزوح والتهجير. هنا، سنتوقف عند ابرز عناوين مراحل النزوح والتهجير تلك، منذ عام 1975 وحتى يومنا هذا، وفق 7 مراحل او عناوين اساسية، معتمدين توصيف النزوح بشكل عام بسبب استحالة الدخول في التفاصيل.

الحرب (1975-1990)

شكلت الحرب الاهلية اللبنانية المرحلة الاكثر كثافة في تاريخ النزوح الداخلي، حيث تشير التقديرات الى ان ما يقارب 810 آلاف شخص تعرضوا للنزوح، مع بلوغ العدد حدود المليون في بعض الفترات، علما أن عدد اللبنانيين آنذاك كان يقارب 3 ملايين ونصف مليون نسمة. ارتبطت هذه الموجات بسلسلة من الاحداث المفصلية، اذ ادى اندلاع الحرب بين عامي 1975 و1976 الى نزوح نحو 300 ألف شخص نتيجة تقسيم بيروت وامتداد المعارك الى جبل لبنان. ثم تواصل النزوح بين 1977 و1981، حيث سجل نزوح اضافي يقدر بنحو 150 ألف شخص بفعل الاشتباكات بين مختلف الميليشيات. مع الاجتياح الاسرائيلي عام 1982 وما تلاه من صراعات داخلية حتى عام 1985، نزح نحو 200 ألف شخص، في حين ادت حروب اواخر الثمانينات، ولا سيما ما يعرف بحربي الالغاء والتحرير (1989–1990)، الى نزوح يقارب 160 ألف شخص اضافي. تميز النزوح بين 1975 و1990 بطابعه البنيوي، اذ لم يكن مجرد انتقال مؤقت، بل ادى الى اعادة توزيع سكاني قائم على اسس طائفية، حيث انتقل السكان من مناطق مختلطة الى مناطق ذات غالبية واحدة. وقد ساهم تدمير أكثر من 45 ألف وحدة سكنية في اطالة امد النزوح، بحيث بقي نحو 450 ألف نازح داخل لبنان حتى بعد انتهاء الحرب. وعليه، يمكن اعتبار هذه المرحلة نقطة التحول الاساسية التي اعادت رسم الخارطة الديموغرافية للبنان بشكل جذري.

الصراع مع العدو الإسرائيلي (1978 - 2000)

رغم تداخل هذه المرحلة زمنيا مع الحرب الاهلية، الا انها اتسمت بخصوصية مرتبطة بطبيعة النزاع الحدودي، حيث شهد جنوب لبنان موجات نزوح متكررة نتيجة العمليات العسكرية التي كان ينفذها العدو الاسرائيلي. فقد ادت عملية الليطاني عام 1978 الى نزوح بين 100 و250 ألف شخص من القرى الجنوبية. اما خلال اجتياح عام 1982، فقد اضطر مئات آلاف المدنيين، يقدر عددهم بين 300 و500 ألف، الى الانتقال نحو مناطق اكثر امنا في الشمال والبقاع وجبل لبنان. خلال فترة الاحتلال الاسرائيلي الممتدة من عام 1982 حتى عام 2000، استمر النزوح بشكل متقطع، حيث شهدت القرى الحدودية موجات نزوح متكررة نتيجة العمليات العسكرية والقصف، من دون وجود رقم ثابت بسبب طبيعة النزوح الدوري. هذا التكرار في النزوح ساهم في اضعاف الاستقرار السكاني في الجنوب، ودفع في اتجاه هجرة داخلية دائمة نحو المدن، خصوصا بيروت وجبل لبنان، مما عمق الاختلال في التوزيع الجغرافي للسكان.

ما بعد الحرب (1990 - 2000)

على الرغم من انتهاء الحرب الاهلية رسميا عام 1990، فان ظاهرة النزوح لم تنته ◄

فعليا، بل استمرت بأشكال مختلفة. فقد حالت عوامل عدة دون عودة جميع النازحين، من بينها الدمار الواسع، ضعف التعويضات، والتعقيدات السياسية المرتبطة بإعادة الاعمار. تشير التقديرات الى انه بعد انتهاء الحرب بقي نحو 450 ألف نازح، قبل ان ينخفض العدد تدريجا، ليبقى ما بين 90 و280 الف شخص في حالة نزوح خلال التسعينات وبداية الالفية. كما

لبنان أكثر دولة فيها اجانب قياسا الى عدد سكانها

شهدت هذه المرحلة موجات نزوح مؤقتة نتيجة العمليات العسكرية، ابرزها القصف الاسرائيلي عام 1996 (عملية عناقيد الغضب)، الذي ادى الى نزوح مئات الاف المدنيين، يقدر عددهم بين 400 و500 الف شخص خلال فترة قصيرة.

حرب تموز (2006)

شكلت حرب تموز 2006 واحدة من أكبر موجات النزوح بعد الحرب الاهلية، حيث نزح ما بين 800 الف و900 ألف شخص خلال فترة قصيرة، اي ما يقارب ربع سكان لبنان آنذاك.

وقد شمل هذا النزوح بشكل اساسي مناطق الجنوب، حيث نزح معظم سكان القرى الحدودية، اضافة الى الضاحية الجنوبية لبيروت التي شهدت نزوح مئات الاف السكان، فضلا عن مناطق البقاع التي تأثرت بالقصف. تميز هذا النزوح بطابعه السريع والجماعي، حيث حصل خلال ايام معدودة، الا ان هذه المرحلة اختلفت عن سابقتها من حيث عودة معظم النازحين الى مناطقهم بعد انتهاء العمليات العسكرية.

مخيم نهر البارد (2007)

ادى الصراع المسلح في مخيم نهر البارد عام 2007 الى نزوح نحو 30 ألف لاجئ فلسطيني، يشكلون كامل سكان المخيم تقريبا، في واحدة من أبرز حالات النزوح المرتبطة بالمخيمات في لبنان. وقد توزع هؤلاء النازحون على مخيمات فلسطينية اخرى في شمال لبنان ومناطق مختلفة، مما ادى الى ضغط اضافي على البنى الاجتماعية والانسانية لهذه المخيمات. وقد تميزت هذه الحالة بكونها نزوحا طويل الامد نسبيا، استمر سنوات عدة نتيجة بطء عملية اعادة الاعمار، اذ لم يتمكن عدد كبير منهم من العودة الا بعد فترات طويلة. وتبرز هذه المرحلة خصوصية النزوح غير اللبناني، وما يرافقه من تحديات اضافية تتعلق بالوضع القانوني وغياب الحلول الدائمة.

الوافدون السوريون (2011 حتى اليوم)

مع اندلاع الحرب السورية دخل لبنان مرحلة جديدة، حيث تحول من بلد يشهد نزوحا داخليا الى بلد يستقبل اعدادا ضخمة من الوافدين السوريين، الذين هم في المفهوم القانوني ليسوا نازحين ولا لاجئين وانما وافدين الى لبنان بشكل غير شرعي او شرعي، بحسب الوضع القانوني لكل فرد. فقد دخل أكثر من مليوني وافد سوري الى لبنان، اضافة الى ما يقارب 300 ألف وافد فلسطيني، وفق تقديرات دولية. هذا الواقع جعل لبنان الدولة الاعلى في العالم

من حيث نسبة وجود اجانب بشكل شرعي او غير شرعي قياسا الى عدد السكان.

العدوان الإسرائيلي (2023 - 2026)

تشير التطورات الاخيرة الى عودة ظاهرة النزوح والتهجير بقوة نتيجة العدوان الاسرائيلي على لبنان، حيث نزح وتهجر عام 2023 أكثر من 835 ألف شخص داخليا نتيجة القصف والتوترات على الحدود الجنوبية. وخلال التصعيد الكبير حاليا عام 2026، سجل نزوح وتهجير سريع تجاوز 800 ألف شخص خلال ايام قليلة فقط. وقد وصل العدد حتى اليوم، بحسب احصاءات عدة، الى أكثر من مليون و50 الفا، مما يجعله من اكبر موجات النزوح والتهجير المفاجئ منذ حرب 2006. وقد شمل النزوح والتهجير في هذه المرحلة عددا كبيرا من بلدات الجنوب وقراه، البقاع، ضاحية بيروت الجنوبية، وسواها. علما ان هذا التهجير القسري الذي ينفذه العدو الاسرائيلي يشكل جرائم حرب، وغيرها من الجرائم الاخرى، بحسب القوانين الدولية.

ابرز الآثار

من البديهي القول ان كل مراحل النزوح والتهجير تركت وتترك آثارا عميقة في مختلف جوانب بنية المجتمع اللبناني، من أبرز تلك الاثار نذكر:

التحولات الديموغرافية

من البديهي القول ان النزوح والتهجير خلال كل تلك المراحل ساهما، لا سيما وبشكل اساسي ورئيسي خلال حرب 1975-1990، في اعادة توزيع السكان على اسس جغرافية مصبوغة بألوان طائفية معينة في النسب الاكبر منها. غير ان ما يستحق التوقف عنده هو انه كل ما مر عدد من سنوات الامان والاستقرار الامني والسياسي في لبنان، يعود عامل الاختلاط ليتوسع تدريجا. هذا ما يفسره علماء الاجتماع والنفس بأن المواطنين كمواطنين، ليست لديهم اي مشكلة شخصية او عقائدية مثلا تجاه مواطني بقية المكونات

مليون لبناني تقريبا هاجروا خلال حرب 1975 و1990

والمناطق في الوطن، وانما يتأثرون فقط بالأوضاع الامنية والسياسية العامة التي تفرض نفسها عليهم فرضا، مما يدفعهم تحت تأثيرها الى الانكماش او التمدد السكني بحسب الوضع العام.

الضغط على المدن

ادى النزوح الى فورة عمرانية كبيرة جدا في مختلف المناطق اللبنانية، لا سيما الساحلية بشكل خاص، وذلك في كل من مدينة بيروت وجبل لبنان والضاحية الجنوبية ومختلف السواحل الممتدة شمالا وجنوبا وسواها ايضا. من البديهي القول، ان هذه الفورة العمرانية التي حصل القسم الاكبر منها في فترة الحرب، تضمن الكثير منها مخالفات لقوانين البناء وقوانين التنظيم المدني.

التأثير الاقتصادي والهجرة

ان كل مراحل النزوح والتهجير ادت الى زيادة الفقر وارتفاع اسعار السكن. اضافة الى الضغط على الخدمات العامة بما جعلها بعد سنوات عدة في حاجة الى اعادة تأهيل او تحديث كلي كي تستطيع تلبية حاجة الكثافة السكانية الهائلة وغير المتوقعة.

تزايد الهجرة

تبين بعض الاحصاءات انه خلال الحرب في لبنان بين اعوام 1975 و1990 هاجر ما بين 700 ومليون لبناني، علما ان عدد اللبنانيين المقيمين كان آنذاك في حدود 3,5 ملايين نسمة، وبأنه بين اعوام 1990 و2010 هاجر بين 220 و400 ألف لبناني. وبين اعوام 2010 و2024 هاجر ما يقارب 700 ألف لبناني.

التلاحم بين الطوائف

من الاثار غير المباشرة التي تستحق التوقف عندها ايضا، امران اساسيان لافتان. الاول، يتمثل في أن نجاح اللبناني في النهوض بوطنه بعد كل كارثة، رغم كثافة الكوارث، هو دليل على انه مواطن وشعب جبار. ان التلاحم بين كل الطوائف عند وقوع اي كارثة، رغم كل الحروب والخلافات التي مرت، هو تأكيد بالأفعال لا بالأقوال بأن لبنان كان وظل وسيبقى وطن الرسالة.